الاحتلال. لقد أَسْقط هذا النظامُ كلَّ مسوِّغات الاستمرار، بعد أن فَقَدَ كلَّ معاني الشرعية عندما عَمَل على الضدّ من الشعارات التي رفعها تأسيسًا لحكمه: فبدل التنمية الشاملة قاد إلى الفساد والركود الشاملَيْن؛ وبدل الحرية قاد إلى الاستبداد المقيم: وفي مقابل الوحدة رعى «وطنية» زائفةً قُطْريةً متحلّقةً حول الرئيس القائد: وبدل تعزيز التكامل العربيّ أَسْهم في زعزعة الاستقرار عندما حاول كلُّ قائد أن يحوّل شخصَه إلى مركز للعمل العربيّ، وقُطْرَه إلى إقليم قاعدة! فانتشرتْ سياسةُ المحاور أنظمةً وأحزابًا فَتَكَتْ في الجسم السياسيّ العربيّ، ولم يتبقَّ من تلك الأنظمة إلاّ بقايا الصراخ الإذاعيّ الذي لا يفيد أحدًا عند الامتحان الرهيب للتاريخ. ومع سقوط «تجربة النظام التقدُّميّ» تهاوت كلُّ المفاهيم والأُطر السياسية والتنظيمية والدولاتية التي ارتبطتْ فيها، وفي مقدمتها مفاهيمُ «الحزب الطليعيّ والثوريّ» و«الديمقراطية الشعبية» (التي ليست في الحقيقة لا ديموقراطية ولا شعبية) و«إقليم القاعدة» والتنمية المرتكزة على الدولة وحدها.

لقد أنهت هذه الهزيمةُ الحربَ الباردةَ العربيةَ بإفلاس طرفَي المعادلة فيها، «النظام التقدُّميّ» و«النظام التقليديّ،» فكان لأميركا شرفُ الإجهاز عليهما، وإلحاقِهما بسياستها طوعًا أو كرهًا بعد أن فَوَّضوا أمرهم إليها، وأصبح العربُ الآن في ظلّ نظام إقليميّ عربيّ تقوده أميركا، بالتعاون أو لمصلحة إسرائيل، لا نستطيع منذ الآن تَلَمُّسَ ملامحِه وآلياته المستقبلية.

وفي عتمات هذه المرحلة تلاشى ما سُمِّي بـ «حركة التحرُّر العربية» شعارًا وحركةً سياسيةً، لينفتح الطريقُ أمام تدهورٍ شاملٍ بعد أن غدت أميركا سيدةَ الموقف في الوطن العربيّ. ويبدو أنّ أميركا ستَنْدفع اختيارًا أو قسرًا إلى مركزة قوتها على الجسم العربيّ بسبب تحولها إلى قوة احتلالٍ تريد حمايةَ نفسها من المخاطر، أو لأنَّها تريد الضغطَ لإعادة ترتيب أوضاع المنطقة العربية ودول الجوار مستفيدةً من زخم نصرها العسكريّ، أو لأنَّها أيضًا تنطلق من تصور استراتيجيٍّ مفادُه أنّ مصدر الخطر الحقيقيّ على مصالحها إنما يأتيها من بلاد العرب والمسلمين ولاسيَّما إذا تصاعدتْ عملياتُ المقاومة العراقية وهَدَّدتْ خططَها في الصميم.

رهانات المستقبل

أمام الركود العربيّ القاتل، لا بدّ من التساؤل عمّا إذا كان بالإمكان تصوُّر قيام مبادرة أخلاقية وعقلانية من النخب الحاكمة العربية تَفْتح الطريقَ أمام المواطنين العرب للإمساك بمصيرهم، وتُرسي مداميكَ دولة القانون والمؤسسات الديمقراطية، وتعيد ترتيبَ البيت العربيّ عن طريق تجديد مؤسسات الجامعة العربية وهيئاتها. أَمْ ترانا ننتظر تحرُّكًا ديمقراطيًا تقوده القوى الاجتماعية المختلفة، وتَدْفع باتجاه تأسيس حياة ديمقراطية في أقطارها وما بين أقطارها على أساس التضامن والوحدة؟

الحقّ أنّ ليس ثمة من مؤشرات على مبادرات عربية كهذه، سواء من النخبة الحاكمة أو المحكومة. والقوة الوحيدة المتحرّكة في الساحة هي أميركا، التي لا تكلّ ولا تهدأ!

وعلى هذا فالركود يعمّ الوضعَ العربيّ، بينما يشكّل العراقُ وفلسطين ـ رغم حالة الاحتلال المروّعة ـ الساحتين الوحيدتين المتحركتين في مواجهتهما لشروط الاستعمار، ويشكّلان عاملَيْن محرِّضَيْن على الاستنهاض العربيّ. ومع تصاعد المقاومة العراقية تنفتح تساؤلاتٌ كبرى ليس أقلَّها السؤالُ التالي: أيُمْكن أن تصبح أرضُ العراق مسرحًا يتقرَّر عليه مصيرُ الوضع العربيّ، بل ومصيرُ الهيمنة الأميركية الأحادية القطبية على العالم بأسره؟

حلب

الأعداد القادمة من الآداب

- ملف الرقابة العربية (٣): الرقابة في المغرب
- أيّ قومية عربية نريد؟
- الجزائر... بعيون مغربية
- السودان... بعيون مصرية
- أبحاث ليمنى العيد ومنير الحمش وآخرين